تجربة الأصالة الأولى في الشعر العربي (في عصر صدر الإسلام)

✍ أ. د. بلة عبد الله مدني(★)

المقصود بعصر صدر الإسلام:

يطلق هذا العصر على المدة من انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وتأثر العرب بتعاليمه إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين، وليس بدء العصر ظهور الإسلام في مكة؛ لأن الدّعوة الإسلامية ظلت حيناً سرية، ثم صدع بها النبيﷺ، وظل حيناً في مكة يلاقي العنت والإيذاء ثم هاجر إلى المدينة، ومنذ ذلك وجدت الدعوة أعواناً أقوياء، ومن ثم أخذت طريقها إلى إنشاء المجتمع الإسلامي الذي اشرأبت إليه نفوس بعض العرب ثم أقبلوا يدخلون في دين الله أفواجاً، وآمنوا بما دعا إليه الإسلام من حياة روحية صافية بعيدة عن الحياة المادية التي عاشها العرب في جاهليتهم.

الإرث الجاهلي في الشعر:

ولقد كان الشعر أرقى أنواع الكلام الذي انتهى إلي عصر صدر الإسلام،

(★) عميد كلية اللُّغة العربية بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية (أم درمان ـ السُّودان).

فهو فن من الفنون الجميلة، يترجم عن المشاعر ، ويعتمد على العواطف، ويخاطب أحاسيس النفوس ومشاعرها.

وقد عبر الجاهليون عن مشاعرهم وبذلوا محاولات في ذلك التعبير حتى وصلوا بشعرهم إلى الصورة التي وصلتنا عنهم قبل الإسلام، وليس من شك في أن ما وصل ليس أول شعر، بل مرّ الشعر قبل ذلك بأطوار من بيتين أو أبيات مخلخلة النغم والمعنى[1]، ثم انتقل إلى مرحلة التهذيب وإجادة النغم ثم إلى مرحلة الإطالة، ولم يزل يتعثر في هذه الأطوار حتى كمل ، ولم يصلنا إلا بعد كماله، ويدل على ذلك قول امرئ القيس:

عُوجا على الطَّلل المحيل لعلنا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خذام[2]

وابن خذام هذا لا شك أنه أقدم من امرئ القيس ولم نعرف عن شعره شيئا غير أن امرأ القيس حاكاه في بكاء الديار .

وعنترة يقول :

هَلْ غَادَر الشُّعراءُ مِنْ مُتردَّمِ أمْ هَلْ عَرفَت الدَّارَ بَعْد تَوهُّم[3]

فالشعراء لم يتركوا لعنترة شيئاً يتولى إصلاحه ، وفي هذا اعتراف من عنترة بأجيال سبقته من الشعراء لم يتركوا له ما يُصْلِح من الشعر .

وزهير يقول:

(١) ابن رشيق، العمدة ، تحقيق محمد محي الدين (بيروت: دار الجيل ١٩٧٢م) ص : ٢٧٠.

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (القاهرة: دار إحياء الكتب، ١٣٦٤هـ)، ص٢٣٠.

(٣) أبو عبد الله الحسن بن أحمد ، المعلقات (بيروت ١٩٧٥) ، ص١١٥.

مـــا أرانـــا نقـــول إلا معـــاراً أو معـاداً مـن قولنـا مكـروراً[1]

فالشاعر يعترف كذلك بأنه يستعير أقوال غيره ويرددها. كل ذلك يشير إلى حقبة من الزمن قيل فيها الشعر قبل تلك الفترة التي وصلت إلينا أخبارها مـن الشعر الجاهلي.

وقد حددت تلك الفترة بنحو قرن ونصف قبل انبلاج فجر الإسلام، وقـد أشار الدارسون إلى ضياع الكـثير منـه ، فكـم زخـرت بـوادي الجزيـرة العربيـة ومدنها بالمئات من الشعراء والشواعر وطـوى الـزمن عنـا أكثـر شـعرهم ، ولم يصل إلا بعض أشعار المجيدين ومـن كانـت لهـم الصـدارة والقـدح المعلـى في الشعر.

لقد صور الشعر الجاهلي حياة العرب كلها أدق تصوير ، فكان المـرآة الـتي انعكست عليها أخلاقهم ، كما صور أحوال مجتمعـاتهم وبيئـاتهم ومعـاركهم ، وتبلورت أغراضه في محاور عدة من وصف ونسيب وفخر ومدح ورثـاء وهجـاء واعتزاز واستعطاف وحكم وغير ذلك ، وانساب ذلك في قصائد قصيرة وطويلة عرفت بالمعلقات.

وتضمن ما تضمن مـن حيـاة قامـت علـى الطـيش والانـدفاع والنهـب والغارة.

(١) ابن رشيق ، ص٢٥٨.

لا يَسْـألونَ أخَـاهم حـيَنَ يَنْـدُبُهم في النَّائبات عَلَى ما قَال بُرهَانـا[1]

وقد استبد القوي بالضعيف ، وتمزقت أواصر الإنسانية بينهم ، فرحى المعارك دائرة تطحن الناس طحناً وغبار الغارات يملأ سماوات الجزيرة العربية وجنون العصبية يخبط في أرجائها خبط عشواء وحمية الجيرين تستل السيوف لتحمي من استجار، والعدوان المجنون يعدو هنا وهناك يأكل أحلام الرجال والنساء ويقضى على الحرث والنسل ، والخيول حول الخيام رابضة للدفاع عن الحرم ؛ حياة قلقة مضطربة مفزعة ، القوى يأكل فيها الضعيف فلا ثقافة تنشر ولا حضارة تبنى ولا كيان يشمخ ولا قيمة إنسانية تسمو ولا دولة تبنى ولا رسالة تؤدى.

وهناك شباب انطلق وراء شهواته يعاقر الراح ويقامر ويطرح الخدور على ربات الخدور ويتبع الفتيات على الغدران والينابيع ويقف على الأطلال يبكي ويستبكي.

ينساب كل ذلك في شعرهم عاطفة جياشة وأسلوباً مؤثراً وكلمة بالغة تتناقلها الركبان تضمخ بها سماء الجزيرة العربية وتنداح بين قبائلها وعشائرها في يسر وسهولة.

وفي خضم هذه الحياة المادية كانت تشرئب أعناق المستغلين لفقر العرب وتمتد أيديهم بالمال لا على سبيل المعونة أو القرض ، ولكن على سبيل الربا

(١) عبد القادر البغدادي، خزان الأدب (القاهرة: المكتبة السلفية ١٢٩٩هـ)، ص : ١٦٥.

الفاحش الذي لا يقبل إلا تحت إلحاح الجوع والحاجة ، وكم خارج من القبائل محتج على هذا السلوك سمى خليعاً، وكم قاطع ليسد رمق الجوع جُعل صعلوكاً ، وشكلت هذه وتلك مظهراً بارزاً من مظاهر الشعر الجاهلي.

وحتى الخصال المحمودة فإن الإفراط فيها قد أساء إليها كالشجاعة التي انقلب الغلو فيها إلى تهور وقسوة وفتك ، وكالكرم الذي تحول إلى إسراف أملاً في الشكر والذكر، وكالمروءة التي تحولت إلى نصر الظالم ضد المظلوم تلبية لرغبة القبيلة والحمية العصبية. وهكذا أدخلت الحياة الجاهلية المادية العرب في نفق مظلم ؛ واعتقاد فاسد، وفقر وجهل واستغلال ، واستبداد ، وفحشاء ، وهتك عرض، وعدم أمان ، وفقدان سلام. وعلى العموم حياة ضيقة الآفاق والطموح ؛ سجن في قيم اجتماعية لا تقدم بل تؤخر ،تنخر فيها الفوضى وتمزق كيانها الحرب تؤدي بالعرب إلى هاوية لا قرار لها .

الخروج من ضيق الحياة الجاهلية إلى رحاب الإسلام :

وجاء الإسلام وهذه حالة العرب الاجتماعية التي عبر عنها شعرهم ، فدعا إلى الألفة ونادى بالاعتصام بحبل الله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1].

في هذا الإطار كان تنظيم الإخاء بين المهاجرين والأنصار بالمدينة أول ترابط عملي نظمه الإسلام ، لبث روح الأخوة والتعاون بين المجتمع الجديد ، ودعا إلى ترك الغلظة في الأمور والأخذ باللين ليشرع سلوكاً حضارياً لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل بل لم يعرفه العالم كله إلا بعد مجئ الإسلام : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2]. ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[3]. ولم يكن قصراً على المسلمين ، بل حتى أهل الكتاب يشملهم: ﴿ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[4]. ونادوا بالقصاص : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ﴾[5]، ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[6]. ﴾[6].

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩

(٣) سورة فصلت الآية ٣٤

(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٦

(٥) سورة البقرة الآية ١٧٨

(٦) سورة البقرة الآية ١٧٩

وأنكر التجبر الذي عرف عن الشامخين من العرب الذين كانوا يقولون:

إذا بلَـغَ الفطـامَ لنَـا رَضـيعٌ تخـرُّ لـه الجبـابُرة سـاجدينا[1]

فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾[2].

ورأى العرب يطففون الكيل فيخسرون على الناس إذا كالوهم أو وزنوهم وسمع المثل (أحشفا وسوء كِيلَه) فنادى: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ﴾[3].

ورأى استغلال الأغنياء لحاجة الفقراء وقسوة الربا، فنادى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾ ﴾[4]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[5].

(١) المعلقات، ص٩٥.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٣

(٣) سورة المطففين الآية ١

(٤) سورة النساء الآية ١٠

(٥) سورة آل عمران الآية ١٣٠

ورأى العرب يحرمون المرأة من الميراث لأنهم يخصون به العصبيات فنادى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾[1].

ورآهم يكرهون الفتيات على البغاء طمعاً في المال فنهى عن ذلك: ﴿ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ ﴾.

ورأى الشجاعة قد انقلبت فتكاً فنادى الرسولﷺ (ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب)[2].

ورأى العصبية الجنسية تطغي وتحتل مكانها في النفوس، فنادى ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[3]. وسن الإسلام الزكاة لتؤخذ من الأغنياء وتعطى للفقراء ليعالج الفقير ويقرب بين طبقات المجتمع ، وحض على الصدقة وبين أجرها في الآخرة : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ ﴾[4]، ونهى عن المن عند الصدقة:

(١) سورة النساء الآية ١٠

(٢) مسند أحمد٢/٢٣٦ ح ٧٢١٨ (رواية أبوهريرة) وصحيح مسلم ٤/٢٠١٤ ح ٢٦٠٩ وصحيح البخاري ٥/٢٢٦٧ ح ٥٧٦٣.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[1].

ودعا المرأة إلى ستر فتنتها حتى لا تثير النفوس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ﴾[2].

لم يكن للعرب نظام موحد يجمع كلمتهم ويلم شملهم ، وإنما كان النظام القبلي هو السائد بين العرب فلكل قبيلة رئيس تفزع إليه في ملماتها ومشاكلها فكانت تعيش في الجزيرة العربية عشرات القبائل لا تربطها رابطة ولا يجمعها نظام إلا ما كان بين بعضها من أحلاف.

فلما جاء الإسلام واستقر سلطانه بينهم اتحدت تحت زعامة واحدة هي زعامة محمد بن عبد الله ﷺ ، ولم تكن تلك الزعامة زعامة ملك استبدادي أو قيصرية باطشة، وإنما كانت زعامة إسلامية تستمد من مبادئ الإسلام وتعاليمه، وتحكم بها بين المسلمين جميعاً.

ولم تكن هذه الزعامة أيضاً وراثية وإنما كانت إمامة للمسلمين بعد الرسول الكريم محمد ﷺ إلى الخليفة الذي استخلفه في مرضه للصلاة بالناس، وكان هذا أيذاناً بخلافته على المسلمين، وهو أبو بكر الصديق الذي كان أول

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٤

(٢) سورة الاحزاب الآية ٥٩

خليفة من الراشدين.

ثم استخلف قبل وفاته عمر بن الخطاب، فانتقلت إليه الخلافة بعد موت أبي بكر، وحين طُعِن عمر رأى أن تكون الخلافة في واحد من ستة رجال سماهم[1]، على أن ينتخبوا من بينهم الخليفة، وتمت بهذا خلافة عثمان بن عفان وبعد مصرع عثمان بايع المسلمون علياً، وكان آخر خليفة من الخلفاء الراشدين.

وبذلك صار العرب بل المسلمون يخضعون لنظام واحد ودانو بالسلطة لإمام واحد يأتمرون بأمره ويلبون نداءه ، ويفتحون البلاد تحت رايته ، ويؤيدونه في سياسته، ويَنَاوئون الخارج على سلطانه وفق وحي السماء.

وكذا تجمع العرب بعد شتات في أمة موحدة قوام وحدتها الدين واللغة ونظام الحكم.

وهكذا نهض الإسلام بحياة العرب الاجتماعية من جميع نواحيها وعمل على خلق مجتمع سليم استطاع أن يتبوأ بين هذا الوجود مكانه ويشق طريقه في قوة بين المجتمعات ذوات الحضارات القديمة بل سيطر بقوته الروحية ومبادئه الصالحة على تلك المجتمعات حتى أنساها الكثير مما اعتزت به في حياتها من نظم وعادات.

وفي ظل تلك الوحدة استقلت المناطق العربية التي كانت خاضعة للفرس ويعينون عليها ملوكاً وأمراء من قبلهم كاليمن أو الحيرة أو البحرين أو التي

(١) تاريخ الطبري (القاهرة: مطبعة الاستقامة ١٩٣٩م)، ص٢١٨.

كانت تحت نفوذ الرومان كالشام، وبعد فتحها جميعاً في عهد أبي بكر وعمر استقلت بأمرها، وأصبح أهلها يعيشون في ظل الخلافة الإسلامية في المدينة.

وقد أثبت العرب حين اتسعت رقعة دولتهم واختلطوا بغيرهم من الفرس والرومان قوة بالغة على إدارة دفة البلاد وحسن سياستها وتصريف أمورها، فكان منهم القادة الذين برعوا في وضع الخطط الحربية التي انتصروا بها على جيوش جبارة من الفرس والروم، وكان منهم الولاة والعمال وجباة الخراج والشرطة والقضاة.

إن العهود والمنشورات والكتب والوصايا التي كانت متداولة بين الخلفاء والقادة والولاة والعمال لتدل أعمق الدلالة على البعث الاجتماعي الجبار الذي جاء به الإسلام، وقد عاونهم في ذلك البعث الكثير من الفرس والروم وغيرهم ممن استخدموهم في مرافق البلاد وكتابة الدواوين.

كان للتصاهر الذي نشأ بينهم وبين غيرهم من الأمم الأخرى أثر في نهضة الحياة السياسية في صدر الإسلام، حين قرّب ذلك التصاهر بين العرب وغيرهم وساعد على تنمية قدراتهم وتمدد الإسلام عبر قارات الدنيا.

وهكذا ألف الإسلام من العرب وغيرهم أمة إسلامية قوية اعتمدت على الدين ونظام الحكم الذي انبثق منه، وعلى اللغة العربية لغة القرآن الذي آمنوا به، وبهذا تكونت الوحدة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقاً إلى قرب

المحيط الأطلسي غرباً، وهكذا ظهرت الدولة الإسلامية لا شرقية ولا غربية ، بل هي دولة إسلامية ذات منهج محدد ميسر للتعامل به ، جعل الحياة حياتين: أولى زائلة وأخرى خالدة يعتمد الوصول إليها على النجاح في الحياة الدنيا ، وبهذا أخرج الإسلام العرب من الظلمات إلى النور ومن ثم انساب في مواعين فكرهم وشعرهم كلمة وشعراً.

التأصيل في الشعر توطئة لحركة الحياة الجديدة:

كان الشعر في الجاهلية ديواناً سجلت فيه حياة العرب وما يدور في جزيرتهم من معارك، وما يرى الشعراء من مشاهد وبروق وأمطار ورياح وحيوان ، وما يجيش في النفوس من مشاعر وهواتف، ومن ثم كان معبراً عن الحياة الاجتماعية ناشراً لقيمها مرسخاً لها في فكر الناس ووجدانهم حتى أضحت تشكل نمط سلوكهم ومسارب تفكيرهم من الصعوبة الانفكاك منها، أو قبول التعديل فيها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تمسك الجاهلين وما صنع آباؤهم : ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1]، ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[2]،

﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[3]، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا

(١) سورة الشعراء الآية ٧٤

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٤

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٠

عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١).

وجاء الإسلام بقيمه الجديدة المليئة بالإيمان والجد والعمل وبنظرته الجديدة إلى المجتمع، وشرع نظماً اجتماعية وسياسية لم يعرفها العرب، فوضع مبادئ لهذه الحياة وشرحها من خلال نصوص القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، ودعا الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم انطلقت ألسنة الخطباء والشعراء الذين آمنوا بها يصورونها ويتحدثون عنها وينشرونها بين الناس.

ومن هنا اصطدمت قيم الماضي المادي الجاهلي بقيم الإسلام الجديدة التي وازنت بين الروح والمادة في الحياة الدنيا، ودعت إلى الحياة الدنيا، ودعت إلى حياة أخرى أفضل وأخلد من الأولى، هي دار حساب وجزاء، وهذا أول تصادم بين الإسلام والحضارات البشرية.

ولما كان الإسلام لا يكلف البشر فوق طاقتهم : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ﴾(٢)، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾(٣)، تأكيداً لبشرية الإنسان ودوره الذي يختلف عن دور الملائكة

(١) سورة الزخرف الآية ٢٢

(٢) سورة الانعام الآية ١٥٢

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦

والمخلوقات الأخرى، فقد نظر إلى تراثه المادي نظرة حق وعدل فأصل بعضه أي جعله جزءاً من تصوراته ورفض بعضه أو عدل فيه بما يناسبه ، ومن ثم انقسم الأثر الشعري بصفة خاصة والأثر الثقافي بصفة عامة إلى قسمين: أصيل أي جزء من التصور الإسلامي ، وتقليدي أي يقلد حياة العرب في جاهليتهم قبل الإسلام ، وهذا هو معنى التأصيل الذي هدفنا إليه في هذه الدراسة.

وقد مخضت الثقافة الجاهلية بصفة عامة والشعر الجاهلي بصفة خاصة حركة تأصيل عميقة الأثر والأبعاد انجلت عن تصور إسلامي جديدللحياة والكون وما ينبثق منهما وفق معايير نقدية من وجهة نظر الإسلام ، وقد تجلت في عدة مظاهر:

أولاً: لقد جاء القرآن الكريم بلغة العرب التي هي لغة الشعر الجاهلي، وقد أبان القرآن الكريم قوة بيان هذه اللغة في إيصال الدعوة إلى الناس وفضلها على اللغات الأخرى ، وقد أشارت آيات كثيرة إلى ذلك : ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[2]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[3]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا

(١) سورة النحل الآية ١٠٣

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٥

(٣) سورة يوسف الآية ٢

عَرَبِيًّا ﴾[1]، ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]، وفي هذا تمكين وخلود للشعر الجاهلي بشقيه الأصيل والتقليدي وأصبحت الألسن مستفيضة به في تفسير بعض القرآن الكريم وتوصيل مضمونه إلى الناس ومن ثم غدا الشعر الجاهلي جزءاً من وسائل المسلمين للدعوة إلى الله استخداماً للدلالة اللغوية وليس مضمونه المادي الذي لا يتفق مع التصور الإسلامي.

ثانياً : أقر التصور الإسلامي الشعر بأنه أداة أو شكل من الأشكال التي يعبر بها الإنسان عن فكره وتطلعاته ، ويدعو من خلالها إلى ما يراه حقاً وعدلاً وجمالاً وذلك حين قسم الشعراء إلى فئتين: فئة تقليدية تقلد القيم الاجتماعية والفنية الجاهلية الموروثة كما هي، وفئة أصيلة صارت أصلاً في إطار التصور الإسلامي ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[3]. فالذين آمنوا بالقيم الإسلامية الجديدة يمكن أن يعبروا عنها من

(١) سورة الرعد الآية ٣٧

(٢) سورة الزمر الآية ٣٨

(٣) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤-٢٢٧

خلال الشعر ، ويصبح بذلك الشعر شكلاً من أشكالهم الفنية التي ينشرون من خلالها ما يرمون إليه من رسالة تجاه كافة الناس، وقد أشار الرسول ﷺ إلى وعائية الشعر: (إنَّ من الشعر لحكمة) [1]، ما يدعم هذا المفهوم، وبهذا أصبح الشعر شكلاً إسلامياً من خلاله عبر شعراء الرسول ﷺ عن دعوتهم إلى الله، ودافعوا عن الرسول ﷺ وجاهدوا بالكلمة في سبيل الله وتواصل الأمر بعد ذلك.

ثالثاً: أحاط التصور الإسلامي هذا الشكل الشعري بأطر فنية ونقدية تحميه من الإنحراف ، وتوجهه التوجه الصحيح بحيث لا يخرج عن الإطار الذي حدد له، وبحيث يكون نافذ التعبير قوي التأثير، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تنفي زعم العرب بأن القرآن شعر وأن النبي شاعر: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[2]، ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾[3]، ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[4]، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ

(١) سنن الترمزي ١٣٧/٥ ح ٢٨٤٤ والبخاري ٢٢٧٦/٥ ح ٥٧٩٣ ويروي الحكمة في سنن بن ماجة ١٢٣٥/٢ ح ٣٧٥٥.

(٢) سورة يس الآية ٦٩

(٣) سورة الانبياء الآية ٥

(٤) سورة الصافات الآية ٣٦

رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾[1]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[2]، ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾[3]. وقد أكد الإسلام هذا المبدأ لأن الشعر الجاهلي لم يكن مجرد متعة وملهاة ، ولا محض رفاهية كمالية ، بل كان ضرورة لازمة أشد اللزوم وألصقه لحياتهم وتصوراتهم للكون والوجود وعلاقاتهم الإنسانية، فالشعراء الجاهليون هم المشرعون لقومهم وإن لم يعطوا سلطة التشريع كما يقول شلل[4].

ومن أجل ذلك فقط أحاط التصور الإسلامي بهذه المسألة ليكون الأمر واضحاً: القرآن قرآن، والشعر شعر بل يجب أن يفرغ الشعر من المضامين الجاهلية ويملأ بالرؤى الإسلامية تلبية للحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام وهذا ليس عداء للشعر باعتباره شكلاً فنياً أو وسيلة للتعبير وإنما هو عداء لمضمونه الجاهلي الذي جاء الإسلام لإصلاحه والإنطلاق به إلى آفاق البشرية كلها.

وفي هذا السياق أجاز الرسول ﷺ قصيدة كعب بن زهير الشهيرة (بانت سعاد) لتصبح نموذجاً يحتذى به من حيث الشكل والمضمون، رغم ما يدور في

(١) سورة الطور الآية ٣٠

(٢) سورة الحاقة الآية٤١

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٢٤

(٤) د. محمد النويهي ، الشعر الجاهلي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر) ، ص٨٦.

مطلعها من تقليد للجاهلين، ولكن إذا أمعنا النظر قد نجد شيئاً آخر فالشاعر لم يصف سعاد وصفاً جسدياً مادياً كما كان يفعل الشعراء الجاهليون، وإنما وصف شعوره نحو سعاد وصفاً تجريدياً ، مما يجعل سعاد هذه ليست امرأة ذات لحم ودم وإنما هي رمز لأشواق الشاعر وتطلعاته التي كملت بلقاء النبي ﷺ والسير في ركاب دعوته، ولعلّ هذا المفهوم ظهر بصورة جلية في شعر العصور التي تلت هذا العصر وأخذ أبعاداً مختلفة لا سيما في شعر المتصوفة.

رابعاً : ثم بعد أن تحدد الشكل الشعري من خلال الرؤى الإسلامية وأحيط بإطاره الفني والنقدي تنزل الأمر إلى أغراضه ، حيث نظر التصور الإسلامي إلى الأغراض التي عرفت للشعر في العصر الجاهلي وأوسعها تأصيلاً، فأبقى بعضها مع التعديل في بعض جوانبها وهجر بعضها تماماً واستحدث أغراضاً جديدة. أما ما بقى من الأغراض مع التعديل فهو:

[أ] المدح:

وقد اتجه الشعراء الذين أسلموا إلى مدح الرسول ﷺ صاحب الدعوة التي أنقذت الناس من الشرك ، وصاحب النفس التي انطوت على الأخلاق الكريمة والسجايا العظيمة.

[ب] الرثاء:

كما اتجهوا إلى رثاء الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ورثاء من مات من كبار المسلمين.

[ج] وصف المعارك الحربية :

التي كانت بين المسلمين والعرب في الجزيرة ثم وصف المعارك التي كانت بينهم وبين الفرس والروم وتطلب ذلك وصف حصونهم وآلات قتالهم ، وتبع وصف الحرب الدعوة إلى الثبات والصبر وإعلان الفتح والنصر.

[د] الفخر:

وقد اتجه في صدر الإسلام إلى الفخر بالبطولات الإسلامية وبالسبق إلى الإسلام.

[هـ] الهجاء:

وقد تجلت معركة الهجاء بين المسلمين والكفار حين عبأت قريش شعراءها لهجاء الرسول، وعبأ الرسول شعراءه للدفاع عنه وعلى رأسهم حسان، وقد نال شعراء المسلمين من قريش ومن معبوداتها. أما ما استحدث من أغراض فهو:

[أ] بيان الدعوة الإسلامية وتأييدها وشرح ما جاءت به من الوعظ والتذكير والتخويف من العقاب وذكر الجنة والنار.

[ب] حث المسلمين على جهاد أعدائهم لإعلاء كلمة الله.

أما ما هجر من الأغراض فهو :

[أ] الغزل الفاحش وما يتصل به من لقاء النساء واقتحام الخدور كما كان يفعل امرؤ القيس وغيره من الشعراء الجاهليين.

[ب] وصف الصيد وطراد الوحش ، كما كان يفعل مترفو العرب ولم يعد

في الحياة الإسلامية العاملة ما يتسع للهو والعبث.

[ج] الإسراف في المفاخرات والمنافرات والتباهي بالأحساب والأنساب.

[د] المغالاة في المدح وتملق الممدوحين طمعاً في المال كما كان يفعل الأعشى والنابغة وغيرهما.

أثر التأصيل في الأسلوب الشعري:

إن شعراء صدر الإسلام لم ينتهجوا أسلوباً شعرياً واحداً من حيث أداء الألفاظ والمعاني ، وإنما تفاوتوا تبعاً لبيئاتهم وقربهم وبعدهم عن المدينة مركز الإشراق الإسلامي، كما تفاوتوا في مدى تأثرهم بالقرآن الكريم وما جاء به الدين الجديد، ومن ثم فإن أثر التأصيل كان ضعيفاً على شعراء البادية ، وهم أهل نجد واليمامة وصحاريها، فقد بقى شعرهم متأثراً إلى حد كبير بالمعاني الجاهلية وبالأساليب والصور التي عرفت لشعراء الجاهلية من تشبيهات واستعارات وكنايات، ذلك لبعدهم عن المدينة عاصمة الشريعة الجديدة، ولهذا تجلى في شعرهم الكثير من غريب اللغة والكثير من أخلاق الجاهليين، وكان شعرهم في الغالب امتداداً للشعر الجاهلي قبل التأصيل.

أما شعراء الحضر، وهم سكان مكة والمدينة والطائف وعرب الشام وعرب الحيرة، فهؤلاء قد تأثر أسلوبهم تأثيراً مباشراً بالتأصيل حيث لانت أساليبهم ورقت ألفاظهم وذلك لأخذهم المباشر من القرآن الكريم ، ونتيجة لذلك فقد ظهر أسلوبان للشعر: بدوى طغت عليه حياة البادية، وحضري تأثر بالقرآن الكريم وبلاغة النبي ﷺ ، وكان أثر التأصيل فيه واضحاً ، فقد خلا من المجالات

التي كان ينطلق فيها الشعر الجاهلي مثل: الغزل الفاحش والفخر القبلي والخمريات وإهاجة النفوس للانتقام والأخذ بالثأر، وقد شغل شعراء الحضر عن الشعر بدراسة القرآن وتفهم أساليبه وتذوق معانيه الذي ملأ عليهم وجدانهم وفكرهم ووجدوا فيه مراتع البلاغة والفصاحة والسحر اللغوي فأغناهم عن الشعر.

وقد رمى بعض النقاد شعراء الحضر بضعف الشعر، واستشهدوا على ذلك بالموازنة بين شعر حسان في الجاهلية وبين شعره في الإسلام.

وهذا غير مقبول عقلياً، لأن هؤلاء وقفوا على بلاغة القرآن الكريم وعذوبة أساليبه وجمال معانيه، ووقفوا على بلاغة النبي ﷺ، وكان فيهم بعض الذين يبذون أقرانهم في الجاهلية من حيث قوة الشعر مثل حسان بن ثابت، فقد يكون من التجني عليهم الرمي بالضعف في الشعر. فواضح أن الإسلام قد استل من الشعر مجالات الشر التي كان ينطلق فيها من غزل فاحش وفخر قبلي وخمريات وإهاجة النفوس للانتقام والأخذ بالثأر، وهذه هي أهم أغراض الشعر الجاهلي التي كان يدور حولها والتي بها تمكن من السيطرة على النفوس وقوة التأثير والاستجابة لها، ولكن الإسلام جاء بحياة جديدة تحارب كل ذلك وتعده عملاً جاهلياً، ويدعو إلى حياة خالية من الفحش والبذاءة والفجور والطيش والانتقام والكراهية، بل حياة مدنية راقية تقوم على الحق والعدل والجمال

وإشاعة الخير بين الناس وجمع شملهم وتعتمد على العقل والمنطق والفطرة السليمة ، وتوجه الناس إلى قتل الشر فيهم وإحياء الخير والفضيلة، فالفرق بين الحياتين كبير جداً ، ولعل الذين رموا شعراء صدر الإسلام بالضعف لم يراعو الفرق بين الحياتين ، وما تحتاج إليه الحياة الأولى من شعر يعبر عن جاهليتها وما تريده الحياة الجديدة من شعر يعبر عن إسلاميتها.

إن ذلك الشعر الضعيف الذي رموا به قد دس عليهم من بعض الحاقدين أو من لهم نزعات عصبية أو نفاق أو غرض آخر يتعلق بالدين أو الشعراء.

حركة التأصيل حول معركة الدعوة :

انجلت معركة التأصيل التي مخضت الشعر في صدر الإسلام عن إيجاد شكل شعري واضح تشكل من بعض رؤى الماضي وتصور الحاضر، وأصبح أداة فاعلة للتعبير عن القيم الجديدة وأحيط بأطر فنية ونقدية قابلة للتطور كلما وسعت الحياة في مساق التصور الإسلامي، وتمدد في أغراض تجدد حسب حاجة المجتمع إليها وباكتمال هذه المراحل دخل الشعر في معركة الدعوة الإسلامية التي زحفت من يثرب إلى القبائل العربية بعد هجرة الرسول ﷺ وبعد إسلام الكثير منها، وقد دخل الشعر معركة الدعوة الإسلامية بعد أن قاومتها قريش وعبأت شعراءها لهجاء الرسول ﷺ والنيل من دعوته بعد الهجرة، وحينها قرر الرسول ﷺ دخول الشعر المعركة في قوة تساوي قوة السلاح حين قال: ما يمنع القوم الذين قد نصروا رسول الله بسلاحهم وانفسهم أن ينصروه بألسنتهم، وتتالت دعوة الرسول ﷺ للشعراء وأخذت اتجاهات مختلفة فتارة يظهر إعجابه

بالشعر ويستنشد الخنساء ويقول هيه يا خناسٍ، وأخرى يقول لحسان: أنشد وروح القدس يؤيدك ويشير إليه: ذلك حاجز بيننا وبين المنافقين، لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق[1].

واستجاب الشعراء لدعوة الرسول ﷺ، فراحوا يدفعون عن رسول الله ألسنة القرشيين، ويدخلون المعركة وعليهم جلال الإسلام وما أعطى القرآن الكريم اللغة من خلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وتوحد لهجاتها، وزوال ما كان فيها من تناكر، وجعلها لسان الدولة الإسلامية، ونشرها في جميع البلاد التي دخلها الإسلام، وجعلها لغة تعليمية، بعد أن كانت ملكة راسخة[2]، وهذب ألفاظها ، وأضاف إليها ألفاظاً جديدة، ومصطلحات تدل على معاني استلزمتها الحياة الجديدة، وعززها بمعانٍ صريحة يشهد لها العقل بالصحة ويعطيها من نفسه أكبر نسبة، ويتفق العقلاء على الأخذ بها والحكم بموجبها في كل أمة وجيل، ويوجد لها أصل في كل لسان ولغة، وأحدث فيها أغراضاً جديدة وسلك بالأغراض القديمة طرقاً غير طريقها، وقلما بقى غرض على حاله بعده، ومنحها أسلوباً أظهر شيء فيه الاقناع بالقضايا العقلية المنطقية، ولفت النظر إلى ملكوت السماوات والأرض، وقص القصص على أشكال مختلفة: في

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ، ص٤٠.

(٢) أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية (القاهرة: دار المعارف)، ص٤٥.

إيجاز طوراً ، وإطناب تارة، وتوسط أخرى. وضرب الأمثال، وقاس الغائب على الشاهد، وكانت فيه معان جديدة وأغراض جديدة فلابد أن يكون فيه مجازات واستعارات وكنايات لم يعرفها العرب، ولابد أن يكون ما عرفوه من ذلك قد نظم، وتصرف فيه على وجه آخر غير الذي ألفوه، حتى قويت دهشتهم، وإزداد تعجبهم من أنهم يرون ألفاظاً هي عين ألفاظهم. ثم لا يجدون في أنفسهم من الشجاعة ما يقدم به إلى معارضته وقد تحداهم تحدياً صارخاً فعجزوا أمامه عجزاً ذليلاً مستكيناً[1]. ويندلح الشعر في معركة الدعوة في مجالات شتى تتداخل حيناً وتتمايز حيناً آخر لتعطي قوة عاطفية وعقلية تدحض كل ما من شأنه أن يقف في طريقها، فهو يهجو الكفار هجاء يعرف منابع الخطل، ومواطن الأذى فيصيب الهدف، ويحقق المراد، ويشفى الصدور. وقد تنوع شعر شعراء الدعوة الكبار في النيل من الكفار، فحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم يشتركون في دفع ألسنة القريشيين عن الرسول ﷺ ، ولكن عبد الله بن رواحة يتعمق في تعيير قريش بالكفر وحسان بن ثابت وكعب بن مالك يتجهان نحو معارضة شعراء قريش بمثل قولهم في الوقائع والأيام وذكر مثالب القوم[2].

وهو يشرح الدعوة ويبين مبادئ الإسلام، يقول النابغة الجعدي: إنه وفد على رسول الله ﷺ حين جاء بالهدى ودين الحق، وقد صادفت دعوة الإسلام

(١) المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٢) عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، مرجع سابق ، ص ٤١٤.

مكاناً في قلبه لأنه لم يعبد الأوثان، بل عَبد الله كما كان يعبده إبراهيم عبادة التأمل والخضوع ومن ثم بادر بالمجئ إلى رسول الله ﷺ ثم يصف الكتاب الذي جاء به النبي ﷺ بأنه نير كنهر المجرة الذي يبدو في ظلمة ليالي الصيف، ويعلن التقوى ويوصى بها ويخاف من عذاب النار:

أتيتُ رسولَ الِله إذْ جَاء بالهُدَى ... ويَتْلو كِتاباً كالمَجَرة نَيِّراً

أُقيمُ عَلَى التَّقوْى وأُرضي بِفِعلِها ... وكُنتُ من النَّارِ المخُوفَةِ أحذرا[1]

ويوضح شعرهم إيمان المسلمين بالله ورسوله ، وبذلهم في سبيل الدعوة النفس والمال، يقول قيس بن حرمة الأنصاري:

بذلنا له الأموال من حلِّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

ونعلم أن الله لا رب غيره ... ونعلم رسول الله أفضل هاديا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا[2]

ويرهب شعرهم الكفار ويهددهم ويتوعدهم ، يقول كعب بن مالك:

قضينا من تهامةَ كل ريبٍ ... وخيبَر ثم أجممنا السيوفا

نخيرها ولو نَطَقتْ لقالتْ ... قواطِعُهُنَّ دوْساً أو ثقيفا[3]

(١) هو حبان بن قيس بنِ عبد الله الجعدي العامري، من المخضرمين ، وقد حرم على نفسه في الجاهلية الخمر وترك عبادة الأوثان.

(٢) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية ، مرجع سابق، ص٥٩٩.

(٣) ابن رشيق، العمدة ، ص ٣١٩.

ولما بلغ دوساً قول كعب هذا قالت: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف ومن ثم سارعت إلى الإسلام.

ويصور شعرهم قوة الإسلام ، يقول حسان بن ثابت:

أكرمْ بقومٍ رسولُ اللِه شيعتُهُم إذا تفرَّقت الأهواءُ والشِّيعُ
لا يَرفَعُ الناسُ ما أوهَتْ أكفهُمُ عندَ الدِّفاعِ ولا يُوهونَ ما رفعوُا[1]

ويصور شعرهم عزة المسلمين وذلة الكفار فهذا حسان بن ثابت يصور معاناة بنى قريظة وذلهم حين حاصرهم الرسول ﷺ بعد غدرهم ونقضهم للعهد:

لقد لقيتْ قُريظةُ ما عَظَاها وحَلَّ بحصنها ذُلٌّ ذليلُ
وَسعدٌ كان أَنذرهم نصيحاً بأنَّ إلهُهُم رَبٌّ جلِيل
فَما برحُوا بنَقضِ العَهد حَتى غزاهمُ في ديارِهِم الرَّسُول
أحاطَ بِحصنِهم منَّا صُفُوفٌ له من حَرٍّ و قْعتِها صَلِيل[2]

وتتداخل أغراض الشعر في معركة الدعوة في قصيدة حسان بن ثابت التي مطلعها :

عَفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجواءُ إلى عَذْراءَ منزِلُها خلاءٌ[3]

فهو تارة يفخر بالإسلام ، وأخرى يهدد الكفار ، وثالثة يهجو ويدافع عن

(١) عبد القادر البغدادي ، خزانة الأدب (القاهرة: المكتبة السلفية، ١٢٩٩هـ)، ص:١٦٥.

(٢) ديوان حسان ، تحقيق وليد عرفات ، ج١ (القاهرة : المكتبة السلفية، ١٢٩٩هـ)، ص ١٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١٤.

النبي ﷺ ، يقول داعياً على المسلمين بفقد أعز ما يملكون وهي الخيل إن لم يشنوا على قريش حرباً ، وإن لم تر قريش خيول المسلمين القوية تثير الارض بحوافرها غباراً ، ثم يعلن موعدها مع قريش (كداء) وهو موضع يطل على مكة من جهة المقابر:

عَدِمْنا خَيلنَا إنْ لم تَروها تُثِير النَّقْع مَوعِدُها كَدَاء[1]

ثم يعلن أن خيول المسلمين تواقة إلى حرب سلسة القيادة تجاري الأعنة، وهي منطلقة بأعنتها ، وقد تحركت على أكتافها الرماح المتعطشة إلى الدماء:

يبُارينَ الأعنَّة مُصْعداتٍ عَلَى أكتافِها الأسَلُ الظِّماءُ[2]

وتظل هذه الجياد مسرعات لاقتحام مكة ونساء قريش يلطمنها بالخمر حتى يرددن الخيل عن دخول مكة ، وكأنما أوحى الله إليه بهذه الصورة التي صدق حسان في تصورها قبل أن تقع، ثم وقعت فاختبأ الرجال في الدور وخرجت النساء تلطم بالخمر الخيول حتى تردها عن دخول مكة:

تَظَلُّ جيادُنا مُتَمَطِّراتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرُ النِّساء[3]

ويعلن حسان أن المسلمين سيؤدون العمرة وينكشف الغطاء عن الموعد

(١) المرجع السابق ، ص٢١٧.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

الذي وعدوا به بالفتح ، وذلك إن لم تتعرض قريش للمسلمين:

فإمَّـــا تُعرضُـــوا عَنَّـــا اعَتَمرنـــا وكان الفَتحُ وانكَشف الغِطَاء[1]

ثم يهدد حسان بالاستعداد للقاء المسلمين والصبر على سيوفهم في يوم ينصر الله فيه من يشاء:

وإلاَّ فَاصْـــــبُروالِحِلاد يـــــوم يُعــزُّ اللهُ فيــه مَــنْ يشــاء[2]

ثم ينتقل حسان بعد أبيات إلى هجاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول واخوه من الرضاعة ، ولم يسلم إلا يوم الفتح ، وكان ممن تعرض لهجاء الرسول وآذاه بهجائه، وفي هذه الأبيات يرد حسان فيهجوه ويرميه بأنه الجبان المجوف الذي لا قلب له في جوفه ويخبره بأن السيوف التي حاربهم بها المسلمون من قبل ذلك في بدر تركتك عبداً ذليلاً وتركت سيادة عبد الدار (وهم حملة لواء قريش) للإماء وذلك حين سقط بنو عبد الدار تحت اللواء واحداً بعد واحد ، فحملته عنهم أمة وبذلك يعيرهم حسان. ثم يحدثه عن هجائه محمداً وتصدر حسان للدفاع عنه، وهو يدخر موقفه هذا عند الله. ثم يستفهمه على سبيل التوبيخ: أتهجوه ولست نظيراً له ويدعو بأن يذهب الشر منهما فداء للخير منهما:

ألا أبلـــغْ أبـــا سُفيـــانَ عَنِّـــى فأَنـــت مُجـــوَّفٌ نخـــبٌ هَـــواء

(١) المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

بِـأنَّ سُيُـــوفنا تَرَكتْـك عَبْـــداً وعَبْـــدَ الـــدَّار سَـــادتُها الَإمـــاءُ
هجـوَتَ مُحمـداً فأجبـتُ عَنْـه وعنـــــد الله في ذاك الجـــــزاء
أتهجُـــوهُ ولســتُ لـه بِكُـفْء فَشَـــرُّكما لخيركُمـــا الفِـــدَاء[1]

ويعلن حسان: أنـه جعـل نفسـه وعرضـه وولـده وقـاء لعـرض محمـد ﷺ فبهجائه أبا سفيان يحمي الرسول من هجاء قريش ويصد عدوانها، وذلك حـين يهجوه أبو سفيان وينشغل بهجائه عن هجاء الرسول ﷺ.

ويفتخر حسان بلسانه الطويل القاطع الذي يشبه السيف الـذي لا عيـب فيه، ويفتخر بمنزلته التي تشبه البحر في السعة والعظم ، وهيهات لذلك البحر أن تكدره الدلاء، وقد شبه أهاجي أبي سفيان لحسان بالدلاء التي تلقى في البحر العظيم ولا تكدره :

لســـاني صـــارمٌ لا عَيَـــب فيـــه وَبَحـــري لا تكـــدِّرُهُ الـــدِّلَاء

وظل الشاعر يخوض معركة الدعوة مع السيوف في أنحـاء الجزيـرة العربيـة ويتخذ منها محوراً للتأصيل حتى تم فتحها وأشرق نور محمد عليها، ولمـا ارتـدت العرب بعد موت الرسـول ﷺ ، وتنبـأ مـن تنبـأ مـن مثـل سـجاح ومسـيلمة، وانطلقت السيوف تحارب المرتدين والمتنبئين وأخذ الشعر موقفه مـع السـيوف في تلك المعارك أيضاً، فهذا ضرار بن الأزور يعلى من قيمة الجهاد حين اشـتبك

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

جيش المسملين مع مسيلمة:

أجاهـد إذ كـان الجهـاد عزيمـة والله بـالمرء المجاهـد أعلـم[1]

وهذا عطار بن الحاجب يحط من قدر سجاح حين يتهكم منها قائلاً :

أمسـت نبيتنـا أنثـى نطيـف بهـا وأصبحت أنبياء الناس ذكرانـاً[2]

وهكذا أبدى الشعر دوره في معركة الدعوة حتى انتصرت ، وكان في بعض الأحيان أشد على الأعداء من وقع السهام، وكانت هذه المعركة هي النموذج التطبيقي لتأصيل الشعر نحو إسلامية التصور والرؤى وتخليصه من أوهام الجاهلية، وقد ساعدت على ذلك عوامل كثيرة منها :

قضاء الإسلام على بواعث الشر التي كانت تثير الشعر كالعصبية والأخذ بالثأر وحب الفتك وتحريم الإسلام للمجالات التي كان يعيش فيها الشعر ويزدهر كالغزل الفاحش والخمر والفخر القبلي، وما سنته الدولة للمسلمين من رواتب من بيت المال تعولهم وتقوم بحاجة أسرهم ، بهذا سدّ الطريق أمام المتكسبين بالشعر.

تحقيق خصائص الأصالة في شعر عصر صدر الإسلام :

وقد جرت حركة التأصيل في الشعر في عصر صدر الإسلام وفق معيار الأصالة النقدي الذي أشار إليه الباحثون لقياس الكمال الفني في النص

(١) عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، ص٣١٠.

(٢) المرجع السابق ، ص٣٣٩.

الأدبي[1].

وقد حددناه بتحقق خمس خصائص يجب أن تتوافر ويشترط أن تكون متكافئة مترافقة متآزرة ، مع مراعاة التفاضل بينها من حيث الخصائص الثابتة والمتغيرة والخصائص الثابتة ثلاث: صلة التراث، والصدق النفسي وعمق التجربة ووضوح الغرض الفني. والخصائص المتغيرة اثنتان: الاستجابة لروح العصر والبيئة والتجديد.

وقد تحققت هذه الخصائص تماماً في شعر عصر صدر الإسلام، فأما صلة التراث ، فقد جاء التصور الإسلامي ولم يلغ تراث الجاهليين جملة وتفصيلاً، بل نظر إلى هذا التراث وقد بشر به قائليه فأجرى عملية تطبيع واسعة نحو إسلامية التصور والرؤى حيث جعل ما يوافقه جزءاً منه وما تنافى معه غير مرغوب فيه ومن هنا ظهر للشعر وصفان: شعر أصيل وشعر تقليدي ، ومن ثم كانت هنالك علاقة كبيرة ووثيقة بين الشعر في صدر الإسلام وبين تراث العرب الأدبي الجاهلي.

وأما الصدق الفني وعمق التجربة ، فقد جاء شعر صدر الإسلام صدى لنفوس صادقة آمنت برسالة الإسلام، وأبلت في ذلك بلاء حسناً خاضت معارك

(١) د. بلة عبد الله مدني ، الأصالة في الأدب، مجلة التأصيل، العدد السادس (الخرطوم: دار جامعة أفريقيا العالمية للطباعة والنشر ١٩٩٨م)، ص ٥١ .

ضارية مع الكفار بالسنان وباللسان وجاء شعرهم صادقاً عميقاً تجلت فيه قوى الشخصية الفردية والسعى في تنميتها وإبرازها نحو آفاق أرحب.

وأما وضوح الغرض الفني ، فقد عبر شعراء الإسلام بلسان عربي مبين عن دعوتهم فلم ينقصهم قصور في الأبنية أو الاشتقاق، أو تعمدوا معاظلة في الألفاظ أو غموضاً في المعاني، فشعرهم واضح الأهداف والأغراض وضوح دعوتهم إلى الله، صاغوه في قوالب فنية الغرض منها التأثير في المستمعين وإيصال تفكيرهم إليهم.

وأما الاستجابة لروح العصر والبيئة ، فقد جاء التصور الإسلامي بنظرة جديدة للكون والإنسان، ومن ثم نقله من عصور المادية والنزوات البشرية والطيش والاندفاع الذي لا يستند إلى قواعد أخلاقية فاضلة إلى عصر التوازن بين الروح والمادة، والتصرف وفق منهج رباني يحيط بحاجة الإنسان في الدنيا والآخرة، واقتضى ذلك وجود علاقات اجتماعية جديدة وتأسيس بيئة إنسانية رفيعة، وقد استجاب الشعراء لتلك المقتضيات التي جاء بها المنهج الذي يعتنقونه فكان شعرهم استجابة لعصرهم وبيئتهم.

أما التجديد ، فقد جاء التصور الإسلامي بعد أن بدأ الشعر الجاهلي في الانحطاط حيث ضاق بماديته وتقاليده ، وأخذت عيوبه تتفاقم حتى كادت أن تؤدي به إلى فساد تام، فأعطاه مجالاً للتجديد ما كان ليظفر به لولا مجئ الإسلام الذي بدل حياة الناس وتفكيرهم.

إن حركة التأصيل التي مخضت الشعر الجاهلي وأعطته فرصة ذهبية للتطور

والتجديد لولاها لاستمر يكرر نفسه حتى يصير لا أكثر من تمرينات آلية تقليدية لا حيوية فيها، واستمرت عيوبه تزداد تفاقماً حتى تنتهي به إلى الفساد التام. ولكن هذه الفرصة الذهبية كانت ضيقة المدى انتهت بانقضاء عصر الخلفاء الراشدين، وكانت تحتاج إلى مدى أطول حتى تعطي آثارها كاملة، وذلك بعد أن يتقبل العرب تعاليم الإسلام الجديدة تقبلاً نفسياً عميقاً لا لفظياً سطحياً ، وقد ظهرت بعض آثار تلك المرحلة بعد جيلين كاملين من الهجرة.

إن قوة حنين العرب إلى أيام الشعر الجاهلي كانت الضربة القوية لانتكاسة الشعر مرة أخرى يتشبثون بقيمه الجمالية، ويرون الإجادة كل الإجادة في طريقته الأدائية، ويلزمون شعراءهم بمحاكاة هذه القيم وهذه الطريقة، ويحكمون على الشعراء المتعاقبين لا بمدى تجديدهم وإبداعهم كما كان ينبغي أن يحكموا بل بمدى مطابقتهم للشعر الجاهلي في محتوى موضوعاته وفي ترتيب هذه الموضوعات، وفي طريقة التعبير عن ذلك المحتوى ، وظل هكذا إلى أن اصطدم بمعطيات العصر الحديث فكان ما كان من تأرجح بين قديم وجديد.

وهكذا كانت تجربة تأصيل الشعر في عصر صدر الإسلام نموذجاً تطبيقياً يجب الاقتداء بها في سبيل صد هجمات الاستلاب الحضاري القديم والحديث.